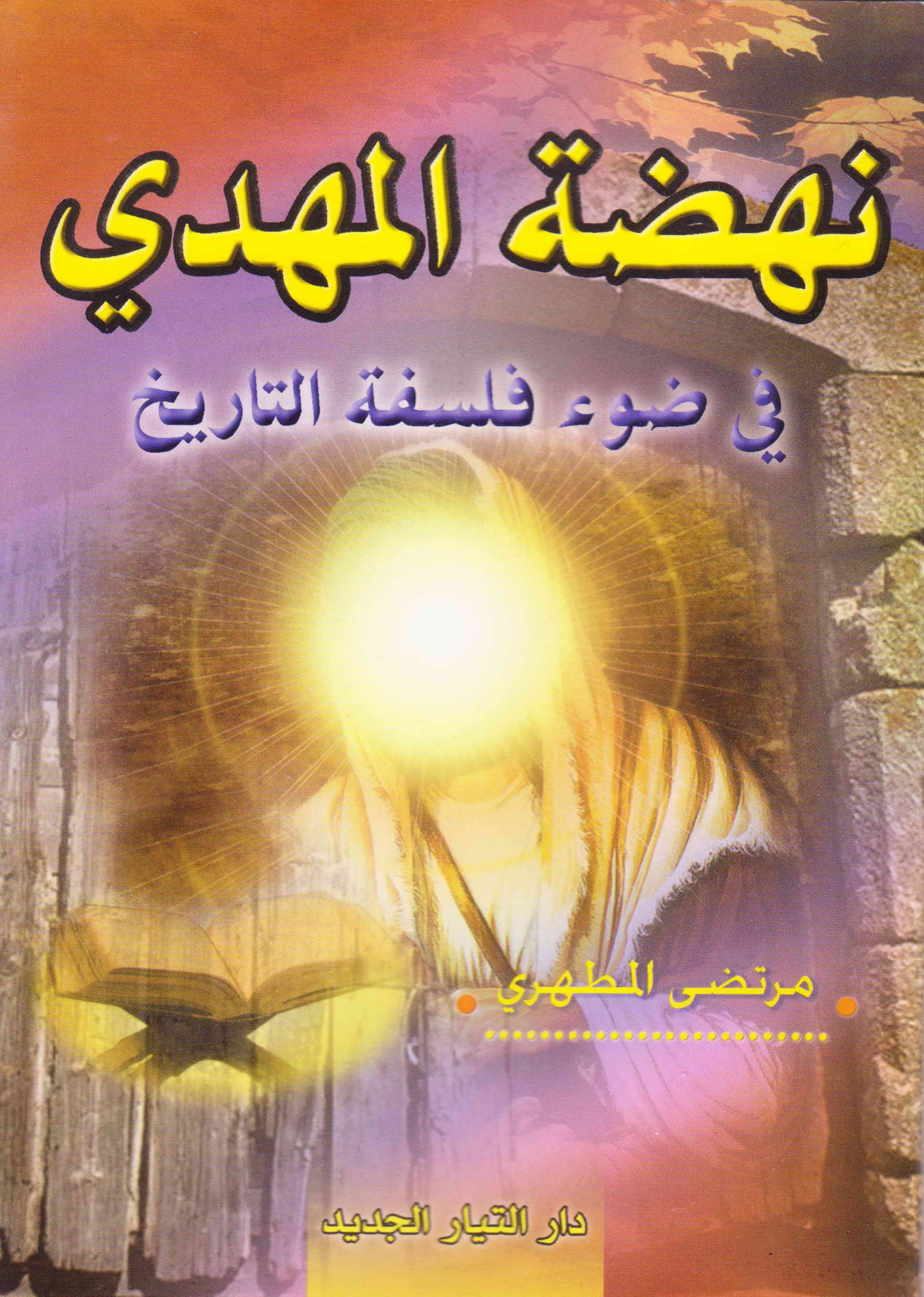

نهضة المهدي
في ضوء فلسفة التاريخ
مرتضى المطهري
دار التيار الجديد

نهضة المهدي
في ضَوء فلسَفة التَاريخ

مرتضى مطهّري

نهضة المهدي

في ضَوء فلسَفة التَاريخ

دار التيار الجديد

بيروت - لبنان

الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م



دار التيار الجديد للطباعة والنشر والتوزيع
تلفون ٠١/٥٤٤٠٩٠ ـ ٠٣/٥٧٨٨٥٠ ـ فاكس ٠١/٥٤١٩٣٠
الشياح شارع معوض ـ بيروت ـ لبنان

مقدمة

يعيش العالم اليوم باستمرار وفي كل لحظة أخطار الحرب النووية المدمرة نتيجة للصراع على المصالح، وتعاني الشعوب فراغاً رهيباً وخواء مظلماً في واقعها الروحي الإنساني ومستواها الخلقي نتيجة لإلحادية الطروحات الفكرية للأنظمة الفاسدة في رؤيتها عن الكون والإنسان. فهي إذن تعيش اليوم في التقلب بين النجاح والفشل ومن مأساة إلى مأساة، سوف لا تنفك عن البحث والتطلع إلى الحل الأفضل لمشكلتها الإجتماعية، والتوجه بكل مشاعرها وأنظارها نحو المبشر المنتظر بهذا الحل الأفضل لإنقاذ المجتمع البشري في كل الأرض من ظلمات الكفر والجور إلى النور وعدالة السماء.

والإسلام دعوة إنقلابية، وعملية تغيير شاملة

للعالم، مفاهيمه، وقيمه وأنظمته، وأعرافه وعاداته، ومن الواضح أن الطريق غير قصير أمام عملية التغيير هذه. وإنما هي ممتدة بإمتداد الفواصل الجذرية بين الجاهلية والإسلام. وقد خط الرسول الأعظم ﷺ بعملية التغيير هذه خطوات مدهشة في برهة قصيرة تم خلالها أنقى تطبيق لتعاليم الإسلام، وإنشاء أرقى نماذج المجتمعات البشرية إنسانية، وأعمقها إيماناً، وأقواها تحضيراً لمسؤولية الجهاد والشهادة.

وبناء على الوعد الإلهي القاطع بإظهار الرسالة الإسلامية على جميع المبادىء، وحيث إن الرسول ﷺ لم تتوفر له الفترة الزمنية لإنجاز مسيرة التغيير العالمية وإقرار الإسلام منهجاً كاملاً للإنسانية، وإن الأوصياء لم تسمح لهم الظروف السياسية والإجتماعية التي واكبت عصرهم من مواصلة عملية التغيير، ولم يتمكن من إنهائها من ولّي الحكم الإسلامي في العهود الماضية، فالمسؤولية تنتهي إلى الأمام والقائد المنتظر المعد من الله تعالى لإحداث عملية التغيير الجذرية في كل

العالم، وانهاء الكفر والظلم على يديه، وإقرار الإسلام منهاجاً حقيقياً لخلاص البشرية كافة يقول القرآن الكريم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾.

وما الدور القيادي الذي يمثله زعيم الثورة الإسلامية في إيران حفظه الله تعالى إلاَّ تحضير وإمتداد للقائد والإمام المنتظر (ع)، وما المداد الطاهر الذي خطته وتخطه أيدي العلماء المخلصين وفي مقدمتهم آية الله الشهيد مطهري الذي صنعته النورانية الخمينية على عينها، وما دماء الشهداء الأبرار التي إقتدحت جذوة الثورة وأضحت مشعلاً وقاداً تستنير به كافة الشعوب المستضعفة إلاَّ قبس من النور الإلهي المنتظر ومرحلة تمهيدية من مسيرته الكلية لتغيير المجتمع الدولي وإعماره بالقسط والعدل بعد ما أرهقت شعوبه بالظلم والجور.

الناشر

بسمه تعالى

الفرق والمذاهب الإسلامية تُجمع - مع إختلاف طفيف بينها - على حتمية انتصار قوى الحق والعدالة والسلام في صراعها مع قوى الباطل والظلم والعدوان في نهاية المطاف. وتؤمن بغد يشع فيه نور الإسلام على جميع ربوع المعمورة، وتسود فيه القيم الإنسانية سيادة تامة، ويتحقق ظهور المدينة الفاضلة والمجتمع الأمثل.

والمسلمون يجمعون أيضاً أن هذه الآمال الإنسانية الكبيرة ستتحقق على يد شخصية مقدسة أطلقت عليها الروايات الإسلامية إسم «المهدي».

هذه الفكرة تنطلق أساساً من المفاهيم القرآنية التي تؤكد على حتمية انتصار رسالة السماء[1]

---

(١) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٩﴾ التوبة/ ٣٣، الصف/ ٩.

وحتمية انتصار الصالحين[1] والمتقين، وحتمية انهزام قوى الظلم والطغيان[2]، وحتمية بزوغ فجر غد مشرق سعيد على البشرية[3].

هذه الفكرة تنطوي قبل كل شيء على نظرة تفاؤلية تجاه المسيرة العامة للنظام الطبيعي وتجاه مسيرة التاريخ، وتبعث الأمل في المستقبل، وتزيل كل النظرات التشاؤمية بالنسبة لما تنتظره البشرية في آخر تطلعاتها.

انتظار الفرج:

الأمل في تحقق هذا الهدف الإنساني

---

(١) ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ الأنبياء/ ١٠٥.

(٢) ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ القصص/ ٥.

(٣) ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ الأعراف/ ١٢٨.

العالمي، ورد في الروايات الإسلامية بعبارة (إنتظار الفرج)، واعتبر الإسلام هذا الإنتظار عبادة بل من أفضل العبادات.

مبدأ إنتظار الفرج يمكن استنباطه من مفهوم قرآني آخر هو «حرمة اليأس من روح الله».

المجموعة المؤمنة بالنصر الإلهي لا تفقد الأمل مهما قست الظروف ولا تسلم نفسها لليأس والعبث بأي حال من الأحوال.

مفهوم إنتظار الفرج وعدم اليأس من روح الله من المفاهيم الإسلامية الشاملة التي لا تختص بفرد معين أو جماعة محددة، فهو يحمل البشائر للبشرية بأجمعها، ويحمل معه أيضاً صفات محددة لهذه البشائر.

نوعان من الإنتظار:

إنتظار الفرج، والتطلع إلى مستقبل أفضل على نوعين:

الأول : إنتظار مثمر بنّاء يبعث على الإلتزام ويمنح

القوة والتحرك، ومثل هذا الإنتظار يمكنه أن يكون نوعاً من العبادة وطريقاً لطلب الحق.

الثاني : إنتظار محرم هدّام يؤدي إلى الوقوع في الأغلال وإلى شل الطاقات، ويمكن اعتباره نوعاً من (الإباحية) كما سنوضح ذلك في آخر هذا البحث.

هذان النوعان من الإنتظار ينطلقان من انطباعين مختلفين عن ظهور المهدي الموعود. وهذان الإنطباعان بدورهما ناشئان عن رؤيتين متباينتين للتطورات والتغيرات التاريخية. من هنا يلزمنا أن نلقي بعض الضوء على طبيعة مجرى الأحداث التاريخية.

شخصية المجتمع وطبيعته:

هل التطورات التاريخية سلسلة من الأمور الطبيعية أم مجموعة من الأحداث التي تتحكم فيها الصدفة والإتفاق؟

الطبيعة خالية طبعاً من الصدفة الواقعية، أي خالية من بروز أو حدوث ظاهرة ليست لها علة. لكن الصدفة موجودة بشكل نسبي قطعاً.

لو خرجت صباح أحد الأيام من بيتك، وشاهدت صديقاً لك لم تره منذ سنين وهو يمر من أمام بيتك، فإنك ستقول: إن هذا اللقاء حدث بطريق المصادفة والإتفاق. لماذا؟... لأن طبيعة الخروج من البيت ـ بشكل عام ـ لا تستلزم مثل هذا اللقاء. ولو استلزم ذلك لالتقيت بهذا الصديق كل يوم.

نحن إذن نطلق إسم (الصدفة) على كل ظاهرة لا تنسجم علتها مع الطبيعة العامة لعلة تلك الظاهرة.

ما يحدث بالصدفة لا يخضع لضوابط عامة، ولا لقوانين علمية، إذ إن القوانين العلمية تعبر عن الأحداث العامة للطبيعة.

نعود إلى السؤال الذي طرحناه آنفاً...

رب قائل: إن أحداث التاريخ هي سلسلة من

الصدف والإتفاقات، أي أنها لا تنضبط تحت قاعدة عامة. . . هذه المقولة تعني: أن المجتمع عبارة عن مجموعة من أفراد ذوي طبائع فردية شخصية. وما يقوم به هؤلاء الأفراد من نشاطات نابعة من دوافعهم الفردية الشخصية، يؤدي إلى سلسلة من المصادفات والإتفاقات. . . وهذه بدورها تؤدي إلى التغييرات التاريخية.

هذه نظرة. . .

والنظرة الأخرى ترى أن للمجتمع وجوده وشخصيته المستقلة عن الأفراد، وله مسيرته التي تقتضيها طبيعته وشخصيته. فشخصية المجتمع هي غير شخصية الأفراد، والشخصية الواقعية والحقيقية للمجتمع تركيب مكون من التفاعل الثقافي للأفراد كسائر التراكيب المشهودة في الطبيعة الحية والجامدة.

المجتمع ـ بناء على هذا ـ له طبيعته وقواعده وضوابطه الخاصة التي تؤطر مسيرته، وهذه المسيرة بكل ما فيها من أفعال وردود أفعال إنما تقوم على أساس قوانين كلية عامة.

لا يمكن أن تكون للتاريخ فلسفة ولا قواعد ولا ضوابط عامة، ولا بمقدوره أن يكون موضوعاً للفكر وأساساً للدراسة والتذكر والإعتبار ما لم يكن المجتمع شخصية مستقلة وطبيعة خاصة.

وإن افتقد المجتمع هذه الشخصية المستقلة تحول التاريخ إلى تعبير عن حياة مجموعة من الأفراد، وفقد عطاءه التربوي. وإن كانت في مثل هذا التاريخ عظة وعبرة، اقتصرت العظة والعبرة على الحياة الفردية ولا تتعداها إلى حياة الشعوب والجماعات.

فهمنا لأحداث التاريخ يقوم إذن على أساس فهمنا لشخصية المجتمع وطبيعته.

القرآن والتاريخ:

مسألة (انتظار الفرج) التي نريد معالجتها في هذا البحث دينية إسلامية، ذات جذور قرآنية، إضافة لما لها من طابع فلسفي واجتماعي. ينبغي على هذا أن نوضح رأي القرآن في المجتمع أحداثه وتطوراته قبل البحث في مسألة الإنتظار.

ليس ثم شك في أن القرآن الكريم يذكر التاريخ على أنه مصدر للتذكر والتفكر ولتلقي العبرة والدروس. لكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصدد يدور حول طبيعة النظرة القرآنية للتاريخ: أهي نظرة فردية أم إجتماعية؟ هل ينطلق القرآن في طرح العبر والدروس من حياة الأفراد أم من حياة الجماعات؟

وإذا كان القرآن يتجه في سرده للتاريخ إلى حياة الجماعات لا الأفراد... فهل هذا يعني أن القرآن يعتبر المجتمع شخصية مستقلة مدركة، ذات قوة وشعور، ومستقلة عن حياة الأفراد؟

وإذا كان جواب السؤال الأخير إيجابياً، فهل نستطيع أن نستنبط من القرآن الكريم السنن والقوانين التي تحكم المجتمعات؟

هذه المواضيع تحتاج إلى دراسات وافية وتتطلب تدوين رسالات مستقلة[١].

---

(١) راجع تفسير (الميزان)، الجزء ٤ ص ١٠٣، الجزء ٧ ص ٣٣٣، الجزء ٨ ص ٨٥، الجزء ١٠ ص ٧١ - ٧٣، الجزء ١٨ ص ١٩١.

نستطيع هنا أن نشير بشكل موجز جداً إلى أن القرآن ينطلق في قسم من دروسه وعبره ـ على الأقل ـ من حياة الأمم والجماعات.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾[1].

القرآن الكريم يرفض بشدة النظرة العبثية إلى التاريخ ويشدد على وجود قواعد ثابتة دائمة لمسيرة الأمم والجماعات فيقول:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾[2].

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[3].

القرآن يشير إلى مسألة تربوية هامة في حقل

---

(١) البقرة، ١٣٤ و١٤١.

(٢) الأعراف ٣٤، والنحل ٦١.

(٣) فاطر، ٤٣.

القوانين التي تحكم التاريخ حين يؤكد أن البشرية هي التي ترسم بيدها مصيرها عن طريق ما تقوم به من أعمال صالحة أم طالحة.

وهذا يعني أن النظرية القرآنية تذهب إلى أن قوانين المسيرة البشرية ما هي إلاّ سلسلة من ردود الفعل لما تفعله الأقوام والجماعات.

من هنا نفهم أن النظرية القرآنية تؤكد على وجود قوانين ونواميس كونية ثابتة لمسيرة التاريخ، كما تؤكد في الوقت ذاته على دور الإنسان وحريته واختياره.

في القرآن الكريم آيات كثيرة بهذا الصدد، نذكر منها على سبيل المثال الآية ١١ من سورة الرعد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾.

تفسير تكامل التاريخ:

المدرسة الفكرية التي تنظر إلى المجتمع باعتباره موجوداً ذا شخصية مستقلة وطبيعة خاصة، لها نظرتها المعينة أيضاً إلى تكامل المجتمع، ولها

تفسيرها الخاص لطبيعة المسيرة البشرية ولمسألة التكامل.

مر بنا أن القرآن الكريم يؤكد على شخصية المجتمع وواقعيته، كما يؤكد أيضاً على الإتجاه الإرتقائي التكاملي للمجتمع.

ومن جهة أخرى تعلم أن ثمة مدارس فكرية أخرى تذهب أيضاً إلى أن مسيرة البشرية تسير سيراً ارتقائياً تفرضه حتمية التاريخ.

من هنا كان لزاماً علينا أن نلقي الضوء على الفرق بين النظرة القرآنية في هذا المجال ونظرة بعض المدارس الفكرية الأخرى، وأن نفهم من خلال ذلك دور الإنسان ومسؤوليته لنستجلي من ذلك كله طبيعة «الإنتظار الكبير» وكيفيته.

طريقتان مختلفتان:

تكامل التاريخ يمكن تفسيره بطريقتين مختلفتين: إحدى هاتين الطريقتين نطلق عليها اسم التفسير (الآلي) أو الديالكتيكي.

والطريقة الأخرى: التفسير «الإنساني» أو «الفطري». ومن هاتين الطريقتين المتباينتين لتفسير تكامل التاريخ ينبثق اتجاهان فكريان مختلفان شكلاً وماهية.

نستعرض فيما يلي هاتين الطريقتين بقدر ما يتعلق الموضوع بمسألة «الإنتظار» و«الأمل» بالمستقبل لا أكثر.

الطريقة الديالكتيكية أو الآلية:

هذه الطريقة تفسر تكامل التاريخ على أساس الصراع بين النقائض. وأولئك الذين يتخذون من هذه الطريقة وسيلة لتفسير تكامل المسيرة البشرية لا يقتصرون على التاريخ بل يفسرون كل أجزاء الطبيعة على هذا الأساس.

نشير فيما يلي بشكل موجز إلى التفسير الديالكتيكي للطبيعة باعتباره أساساً للتفسير الآلي للتاريخ.

يقوم التفسير الديالكتيكي للطبيعة على

الأسس التالية:

أولاً : الطبيعة في حركة مستمرة ودائمة، وليس فيها ما هو ساكن وثابت، فالنظرة الصحيحة للطبيعة إذن هي أن نرى الأشياء في حالة حركة وتغير دائمين، والفكر هو أيضاً متغير باعتباره جزءاً من الطبيعة.

ثانياً : كل جزء من أجزاء الطبيعة يتأثر بأجزاء الطبيعة الأخرى ويؤثر فيها. فهناك ارتباط عام بين جميع الأجزاء، وعلى هذا فالنظرة إلى الطبيعة لا تكون صحيحة ما لم تدرس جميع الأشياء وهي مرتبطة مع بعضها، لا مفككة ومجزأة.

ثالثاً : الحركة ناشئة عن صراع النقائض. فكما قال «هرقليطس» اليوناني قبل خمس وعشرين قرنا: الصراع أساس كل تطور.

وصراع النقائض يأتي عن طريق اتجاه كل ظاهرة نحو ضدها ونقيضها، وهذه الظاهرة تحمل نقيضها معها. فكل ظاهرة موجودة ومعدومة في آن واحد. لأنها تحمل عوامل

عدمها وفنائها معها .

ومع نمو النقيض يحتدم الصراع بين الظاهرة الأصلية التي نريد الحفاظ على وضعها ووجودها، وبين نقيضها الذي يريد أن يبدلها إلى ضدها .

رابعاً : الصراع بين النقائض داخل الظواهر يزداد شدة باستمرار حتى يبلغ ذروته، أي أن التغيير الكمي يزداد ليبلغ أقصى حد ممكن، وحينئذ تحدث طفرة ثورية في التغييرات الكمية لتتحول إلى تغييرات كيفية، وينتهي الصراع لصالح القوى الجديدة، وتندحر القوى القديمة ويتبدل الشيء بأجمعه إلى نقيضه .

فهذه الطريقة لفهم الوجود تتلخص إذن في إفتراض قضية أولى وجعلها أصلاً وهي ما يطلق عليها اسم «الاطروحة» ثم ينقلب هذا الأصل إلى نقيضه وهو «الطباق» بحكم الصراع في المحتوى الداخلي بين المتناقضات، ثم يأتلف النقيضان في وحدة وهي «التراكيب» . وتصبح هذه الوحدة

بدورها أصلاً ونقطة إنطلاق جديدة، وهكذا يتكرر هذا التطور الثلاثي وبهذا الشكل تطوي الطبيعة مراحل تكاملها.

فالطبيعة ليست هادفة ولا تنشد كمالها، بل تتجه نحو انهدامها، لكن هذا الإنهدام يحمل بدوره عنصر انهدامه، وكل نقيض يتجه بدوره نحو نقيضه... ونفي النفي نوع من التركيب الذي يؤدي إلى دفع التاريخ نحو التكامل بشكل حتمي وجبري.

والتاريخ جزء من الطبيعة، وهو لذلك يطوي نفس مسيرة الطبيعة على الرغم من أن عناصر المسألة التاريخية هم أفراد البشر.

أي أن التاريخ تحرك مستمر وارتباط متبادل بين الإنسان والطبيعة، والإنسان والمجتمع... وهو مواجهة وجدل دائمان بين المجموعات الإنسانية الفتية، والمجموعات التي تتجه نحو الزوال... وهذه المواجهة تؤدي في نهاية الأمر إلى حركة ثورية لصالح القوى الفتية النامية.

بعبارة أخرى: التاريخ مسرح لصراع الأضداد. . . حيث تتجه كل ظاهرة نحو ضدها ثم يتم التكامل على أثر تركيب الأضداد.

هذه النظرية تذهب بعد ذلك إلى أن العمل الإنتاجي هو أساس حياة البشرية والعامل المحرك للتاريخ.

فالعمل الإجتماعي في أية مرحلة من مراحل التاريخ يخلق نوعاً خاصاً من العلاقات الإقتصادية بين الأفراد. وهذه العلاقات الإقتصادية تؤدي إلى انبثاق مجموعة من العلاقات الأخرى كالعلاقات الخلقية والسياسية والقضائية والعائلية ونظائرها.

والعمل الإنتاجي لا يتوقف على شكل معين، إذ إن الإنسان مزود بقدرة على تطوير وسائل الإنتاج. وتكامل وسائل الانتاج يؤدي إلى زيادة الإنتاج وإلى خلق جيل جديد يحمل أفكاراً جديدة متكاملة. . . أي أن هناك تأثيراً متبادلاً بين الإنسان والآلة، الإنسان يخلق الآلة، والآلة تخلق الإنسان الجديد. ومن جهة أخرى، زيادة الإنتاج تؤدي إلى إيجاد علاقات إقتصادية جديدة، ومن

هذه العلاقات الإقتصادية الجديدة تنبعث مجموعة أخرى من العلاقات الإجتماعية. وهذا هو المقصود من مقولة: الإقتصاد بشكل البناء التحتي للمجتمع، وكل ما عداه فهو بناء فوقي. أي أن جميع الأوضاع الإجتماعية معلولة للوضع الإقتصادي.

وعندما يتغير البناء التحتي على أثر تطور وسائل الإنتاج تتغير كل الأبنية الفوقية. وفي هذه الحالة تحاول القوى التي ترتبط مصالحها بالوضع الإقتصادي القديم أن تحافظ على هذا الوضع بشكله الموجود، لكن الطبقة الفتية المرتبطة بوسائل الإنتاج الجديدة ترى أن مصالحها تقتضي تغير الأوضاع واحلال نظام إقتصادي جديد، ومن هنا تسعى إلى تغيير المجتمع وتطويره وإلى إيجاد نوع من التناسق بين المسائل الإجتماعية من جهة ووسائل الإنتاج المتكاملة ومستوى الإنتاج الجديد من جهة أخرى.

ويستمر الصراع بين الفريقين: فريق رجعي ومرتبط بالماضي، والآخر تقدمي يرتبط بالمستقبل.

أحدهما: يرى ضرورة بقاء الأوضاع الموجودة من أجل استبقاء وجوده. والآخر: يسعى نحو أجواء جديدة وأوضاع جديدة. أحدهما: يتجه نحو الزوال، والآخر: نحو النمو.

ويشتد هذا الصراع ويحتدم ليبلغ ذروته حيث يحدث الإنفجار، ويتبدل المجتمع في خطوة ثورية تبدلاً يتمثل بتغير النظام القديم وإحلال النظام الجديد وانتصار القوى الجديدة وفشل القوى القديمة.

وهنا تبدأ مرحلة جديدة من مراحل التاريخ، وهذه المرحلة الجديدة تتطور أيضاً إلى مرحلة جديدة أخرى بنفس الطريقة السابقة.

فالتاريخ في مفهوم هذه النظرية يطوي مسيرته عبر الأضداد. وكل مرحلة من مراحل التاريخ تحل في أحشائها المرحلة التالية. وبعد صراع مستمر تترك المرحلة السابقة مكانها للمرحلة التالية.

هذا الإتجاه الفكري لتفسير الطبيعة والتاريخ يسمى الإتجاه الديالكتيكي.

ولما كان هذا الإتجاه يعتبر كل القيم والأوضاع الإجتماعية في جميع مراحل التاريخ مرتبطة بوسائل الإنتاج وتابعة لها، فقد أطلقنا عليه إسم «التفسير الآلي» ومتى ما ذكرنا مصطلح «التفسير الآلي للتاريخ» فإننا نقصد به هذا اللون من التفكير.

العنصر الأساسي:

ما هو العنصر الأساسي الذي يمتاز به التفكير الديالكتيكي في حقل التاريخ والطبيعة؟

ما هو الفرق الرئيسي بين هذا الإتجاه وهذا المنطق، والإتجاهات الفكرية والمنطقية الأخرى.

ما الذي يميز هذا التفسير للظواهر الطبيعية عن التفسير الذي يطلق عليه أرباب المنطق الديالكتيكي إسم «التفسير الميتافيزيقي»؟

دعاة المنطق الديالكتيكي يتبعون مع الأسف طريقة «الغاية تبرر الوسيلة» في عرض المفاهيم، وهم لذلك يلقون التهم تلو التهم على ما يسمونه

بالمنطق الميتافيزيقي، عند إجابتهم على الأسئلة المذكورة.

ويقولون أيضاً: إن التفكير الديالكتيكي يعتبر الأشياء باعتبارها متحركة، بينما يعتبر الإتجاه الميتافيزيقي جميع أجزاء الطبيعة ساكنة جامدة.

لكن الحقيقة غير ذلك، فأرباب الإتجاه الميتافيزيقي لا ينظرون الأشياء باعتبارها جامدة غير متحركة، بل بالعكس فالبحوث المتعلقة بالطبيعة في الفلسفة الإلهية ترى أن السكون في الطبيعة مفهوم نسبي والثبات من خصائص ما وراء الطبيعة[١].

ويقولون أيضاً: إن التفكير الديالكتيكي يعتبر الأشياء مرتبطة مع بعضها وذات تأثير متبادل على بعضها. بينما أصحاب ما يسمى بالمنطق الميتافيزيقي ينظرون إلى الأشياء مفككة غير مترابطة مع بعضها.

---

(١) للتوسع في هذا الصدد راجع (فلسفتنا)، محمد باقر الصدر، فصل (حركة التطور) «المترجم».

وهذا مخالف للواقع فما يسمونه بالمنطق الميتافيزيقي لا ينظر إلى الأشياء باعتبارها منفصلة مفككة عن بعضها[1].

والفلاسفة الإلهيون أو لمن نظر إلى أجزاء العالم باعتبارها مرتبطة مع بعضها ارتباطاً عضوياً. وإلى العالم على أنه إنسان كبير، وإلى الإنسان على أنه عالم صغير، مع فارق في التعبير وطريقة الإستنتاج بين الماديين والإلهيين في هذا الصدد.

ويقولون كذلك: إن المسألة الأساسية التي تميز التفكير الديالكتيكي عن التفكير الميتافيزيقي هي مسألة التضاد.

ويستند هؤلاء إلى المبدأ المعروف في المنطق والفلسفة القائل بعدم إمكان إجتماع النقيضين وارتفاعهما ليستنتجوا: أن التفكير الميتافيزيقي يرفض أي نوع من التناقض وأنه يرى جميع أجزاء الطبيعة منسجمة مع بعضها حتى الماء

---

(١) راجع نفس المصدر، فصل (الارتباط العام) «المترجم».

والنار! وأن أرباب التفكير الميتافيزيقي يدعون القوى الإجتماعية الكادحة المسحوقة ـ إنطلاقاً من رؤيتهم هذه ـ إلى المصالحة والمسالمة «كذا!».

والحقيقة أن المبدأ المذكور لا علاقة له إطلاقاً بمسألة التناقض، وهذا اللون من الإستنتاج تحريف للحقائق... فأصحاب التفكير الإلهي يرون أن التضاد في عناصر الطبيعة شرط لازم لدوام الفيض من الباري تعالى[1].

ويدعون أيضاً: إن العنصر الأساسي الذي يمتاز به التفكير الديالكتيكي في حقل التاريخ والطبيعة هو مبدأ قفزات التطور والحركات الثورية في التاريخ.

لكن هذا الإدعاء مرفوض أيضاً لأن مسألة قفزات التطور ليست لها أصالة في التفكير الديالكتيكي.

---

(١) كتب المؤلف الشهيد مقالاً قيماً في هذا الحقل تحت عنوان (أصل التضاد في الفلسفة الإسلامية)، عسى أن أوفق لنشر ترجمته العربية قريباً «المترجم».

هيغل ـ أبو الديالكتيك ـ لم يذكر هذا المبدأ ضمن مبادىء الديالكتيك، وهكذا كارل ماركس.

ظهر مبدأ قفزات التطور خلال القرن التاسع عشر في علم الأحياء وأضافه أنجلس ـ تلميذ ماركس ـ إلى مبادىء الديالكتيك، واليوم يعتبر هذا المبدأ من قوانين علم الأحياء، وليس له ارتباط بأية مدرسة فكرية.

فما هو العنصر الأساسي إذن؟

العنصر الأساسي الذي يمتاز به هذا الإتجاه الفكري عن غيره من الإتجاهات يتلخص بما يلي:

١ ـ قوله بديالكتيكية الفكر: أي أن الفكر الإنساني جزء من الطبيعة، وهو بالتالي خاضع لقوانين الديالكتيك الأربعة: «**حركة التطور ـ وتناقضات التطور ـ وقفزات التطور ـ والإرتباط العام**». والإتجاه الديالكتيكي ينفرد في هذا، ولا يشاركه فيه إتجاه آخر.

٢ ـ تحديده للتناقض بالإنتقال من الأطروحة إلى الطباق ومنه إلى التركيب، أي أن الديالكتيك

يفهم التناقض بأنه ضرورة إحتواء كل ظاهرة على ضدها، ثم انتقال تلك الظاهرة إلى حالة الضد، وهذه الحالة الجديدة تستمر في التطور على نفس الطريقة. وبذلك فالطبيعة والتاريخ يطويان مسيرتهما عبر الأضداد. والتكامل في رأي الديالكتيك هو إجتماع الضدين في تركيب جديد.

مبدأ التناقض قديم، وهو يعني أن أجزاء الطبيعة في حالة صراع بل وأحياناً في حالة تركيب مع بعضها. وما أضافه الفكر الديالكتيكي إلى هذا المبدأ هو أن الصراع بين المتناقضات لا يقتصر على أجزاء الطبيعة، بل إن كل ظاهرة تربي في أحشائها نقيضها وتبرز ظاهرة التناقض بالصراع بين العوامل الجديدة الفتية والعوامل القديمة، وتنتهي بانتصار العوامل الجديدة.

هاتان الخاصيتان تشكلان العنصر الأساسي للفارق بين التفكير الديالكتيكي والتفكير غير الديالكتيكي.

ومن الخطأ ـ بناء على ما تقدم ـ إضفاء صفة الديالكتيك على كل مدرسة تؤمن بمبدأي الحركة

والتناقض بين أجزاء الطبيعة.

لقد حاول البعض وصف الفكر الإسلامي بأنه فكر ديالكتيكي بعد أن شاهدوا مبدأ الحركة والتغير والصيرورة وكذلك مبدأ التناقض في التراث الإسلامي.

والحقيقة غير ذلك، فالفكر الإسلامي يؤمن بوجود حقائق ثابتة خالدة غير قابلة للتغير، وهذا ما لا يؤمن به الفكر الديالكتيكي الذي يعتبر كل ما في الذهن من حقائق عن العالم إنما هي مؤقتة ونسبية.

إضافة إلى ذلك فالتناقض في التراث الإسلامي يتعارض مع مفهوم التناقض الديالكتيكي الذي يحصر حركة التاريخ والطبيعة بالسير عبر مثلث. **الأطروحة والطباق والتركيب**.

هذا الخطأ ناشىء بالدرجة الأولى من التهريج الذي يعمد إليه كثير من أتباع المادية الديالكتيكية حين يطلقون في أحاديثهم إسم الإتجاه الميتافيزيقي على كل إتجاه فكري غير ديالكتيكي، ثم يرشقون هذا الإتجاه الميتافيزيقي بوابل من التهم كعدم

الإيمان بالحركة وبالإرتباط العام وبالتناقض.

هذه التهم تُطرح ضمن ثرثرة لغوية مسهبة وبعبارات قاطعة حاسمة تدفع بقارئها السطحي إلى الايمان بأن الحركة والإرتباط العام والتناقض مبادىء يختص بها الفكر الديالكتيكي وحده لا غير.

ومثل هذا القارىء يتخذ تجاه الفكر الإسلامي أحد موقفين خاطئين: أما أن يضع الإسلام باعتباره ديناً سماوياً إلى صف الأفكار الميتافيزيقية «غير الديالكتيكية» ويخرج بنتيجة سريعة هي: أن الفكر الإسلامي كسائر الأفكار الميتافيزيقية يقوم على أساس الثبات والسكون وعدم وجود إرتباط عام بين أجزاء الطبيعة وعدم وجود تناقض بين هذه الأجزاء...

وأما أن يكون هذا القارىء مطلعاً على الفكر الإسلامي وعالماً بخلو هذا الفكر مما يُتهم به الفكر الميتافيزيقي، بل بوجود مبادىء الحركة والإرتباط العام والتناقض في الفكر الإسلامي، فيستنتج من ذلك أن التفكير الإسلامي ليس بميتافيزيقي.

ولما كان دعاة المادية الديالكتيكية قد أوحوا له أن الإتجاهات الفكرية لتفسير الطبيعة لا تزيد على اثنين: الديالكتيكي والميتافيزيقي، فإن مثل هذا القارىء يضفي صفة الديالكتيكية على الفكر الإسلامي.

هذه الأخطاء التي يقع فيها القارىء السطحي ناتجة - كما قلنا - عن تساهل دعاة المادية الديالكتيكية في عرض أفكار الآخرين وعن إنتهاجهم أسلوب التهريج وإلقاء التهم بالنسبة للإتجاهات الفكرية غير الديالكتيكية، وحقيقة المسألة - كما ذكرنا - هي غير ذلك.

نتائج الإتجاه الآلي لتفسير التاريخ:

١ - «مفهوم القديم والجديد»:

تعبير القديم والجديد في المنطق الديالكتيكي لا ينطلق من تعاقب جيلي، أي لا يعني المجابهة بين الجيل الجديد والجيل القديم. لا يعني أن الجيل الجديد يقف بالضرورة في صفوف الجبهة الثورية، ولا يعني أيضاً أن الجيل القديم يقف

بالضرورة في الجبهة المحافظة.

كما أن هذا المفهوم لا ينطلق من إطار ثقافي، أي أنه لا يعني المجابهة بين المثقفين والأميين.

بل إنه مفهوم إجتماعي وإقتصادي بحت.

فالطبقة القديمة هي التي ترتبط مصالحها بالوضع الموجود، والطبقة الجديدة هي الناقمة على الوضع الموجود، وهي التي فرضت عليها وسائل الإنتاج الجديدة أن ترى الأوضاع الموجودة معارضة لمصالحها وأن تسعى إلى تغيير البناء الفوقي للمجتمع.

فالتقدمي في رأي هذا الإتجاه هو نصير تغيير الأوضاع الموجودة وتكامل المجتمع... والرجعي هو الذي يطالب بالثبات وببقاء الأوضاع الإجتماعية على ما هي عليه.

الطبقة المرفهة والمنتفعة من الأوضاع الموجودة هي رجعية جامدة الفكر بالضرورة، لأن محتوى التفكير الإجتماعي للأفراد يتكون من خلال

مكانتهم الطبقية وظروفهم الإقتصادية، وبنفس السبب فالطبقة المسحوقة المستثمرة تقدمية ذات فكر متطور متحرك. وهذه مسألة لا علاقة لها بالمعلومات وبالثقافة. فالحركة الإجتماعية تبدأ غالباً من الفئات والطبقات ذات المستوى العلمي الهابط، لكن هذه الفئات مثقفة لمكانتها الطبقية.

٢ ـ «التسلسل المنطقي للتاريخ»:

المراحل التاريخية ـ في المنطق الديالكتيكي ـ مرتبطة مع بعضها إرتباطاً طبيعياً ومنطقياً. وكل حلقة من حلقات التاريخ لها مكانها المعين الخاص، وليس بالامكان أن تتقدم أو تتأخر.

فالرأسمالية مرحلة تاريخية تتوسط مرحلة الإقطاع والمرحلة الإشتراكية. ومن المستحيل أن ينتقل المجتمع من الأقطاع إلى الإشتراكية دون أن يمر بالمرحلة الرأسمالية، فلا طفرة في مراحل التاريخ كما كان يعتقد الفلاسفة الأقدمون.

فالطفرة في التاريخ تشبه إنتقال نطفة الإنسان إلى مرحلة الطفولة دون أن تمر في المرحلة

الجنينية، وتشبه إنتقال الوليد إلى مرحلة الشباب دون أن يمر في مرحلة الطفولة.

من هنا فأصحاب هذا المنطق يطلقون إسم الإشتراكيين المثاليين على الإشتراكيين الذين أرادوا أن ينطلقوا من ايمانهم بالفكرة الإشتراكية إلى تطبيق هذه الإشتراكية دون أن يراعوا جبر التاريخ والتسلسل المنطقي للمراحل التاريخية. كما سموا إشتراكيتهم بالإشتراكية الطوباوية أو الخيالية، خلافاً للإشتراكيين الماركسيين الذين يقيمون فكرهم على أساس التسلسل المنطقي لحلقات التاريخ.

٣ ـ «ذروة كل مرحلة»:

ليس من الضروري أن يمر التاريخ في مراحله المتوالية المرسومة دون طفرة فحسب، بل من الضروري أيضاً أن تبلغ كل مرحلة من المراحل إلى ذروة كمالها لتتبدل إلى مرحلة جديدة أخرى، ولتستمر المسيرة التكاملية.

لا بد لمرحلة الإقطاع ـ مثلاً ـ أن تطوي مسيرتها بالتدريج لتبلغ مرحلة تاريخية معينة يحدث

فيها التغيير. وانتظار أية مرحلة مقبلة من مراحل التاريخ دون أن تبلغ المرحلة الراهنة ذروتها كانتظار الولادة قبل أن تطوي النطفة مراحلها الجنينية. وولادة مثل هذه ـ إن تمت ـ فهي إجهاض وليست ولادة سليمة.

٤ ـ «قدسية النضال»:

لما كان الصراع بين القديم والجديد شرطاً أساسياً لانتقال التاريخ من مرحلة إلى مرحلة أخرى، وركناً ضرورياً من أركان تكامل المجتمع البشري، فالصراع بين القديم والجديد هو نضال مقدس لمهما كان لونه.

فالقديم يستحق الفناء لا لكونه معتدياً.. بل لأنه قديم.. ولأن زواله يدفع بالمجتمع نحو التكامل.

من هنا فقدسية النضال لا تنطلق من كونها دفاعاً عن حق أو رداً لهجوم.

٥ ـ «إثارة الفوضى»:

نضال الجديد للقديم ليس وحده هو

المشروع والمقدس بل كل تحرك يمهد للثورة ويدفع بعجلة التكامل مشروع ومقدس أيضاً، كإثارة الإضطرابات من أجل خلق الإستياء وتعميق الفجوات وتصعيد النضال.

فالتكامل ـ كما ذكرنا ـ هو أن ينقلب الضد إلى ضده في حركة ثورية سريعة. وطريق هذا التغيير هو الصراع الداخلي للتناقضات.

ولا يمكن لهذا التغيير أن يتم دون أن يصل عمق الفجوات وشدة الصراع إلى أعلى مرحلة من مراحل تكامله.

وكل ما من شأنه أن يوسع الثغور يعمل على الإسراع في تغيير المجتمع من مرحلة إلى مرحلة أسمى.

ولما كانت عملية إثارة الفوضى والإضطرابات تستطيع أن تنهض بهذا الدور، فهي مشروعة ومقدسة طبقاً لهذا المنطق.

٦ ـ «الإصلاحات»:

من جهة أخرى، الإصلاحات الجانبية

والخطوات الرامية إلى تسكين آلام المجتمع هي خيانة وتخدير ووقوف بوجه التكامل وانخراط في جبهة أعداء التطوير، إذ أن مثل هذه الإصلاحات والخطوات تقلل من الفجوات ولو بشكل مؤقت. وتخفض حدة التناقضات. وهذا ما يؤدي إلى تأخير موعد انفجار الثورة.. وتأخير موعد التغيير والتكامل.

هذه هي أهم نتائج الإتجاه الديالكتيكي أو الآلي لتفسير التاريخ.

الطريقة الإنسانية أو الفطرية:

الطريق الإنسانية أو الفطرية لتفسير التاريخ تقف في النقطة المقابلة للتفسير الآلي.

هذه الطريقة تمنح الإنسان والقيم الإنسانية أصالة سواء على مستوى الفرد أم على مستوى المجتمع.

هذه الطريقة تنظر إلى الكائن الإنساني ـ في إطار علم النفس ـ بأنه مكوّن من مجموعة غرائز

مادية يشترك فيها سائر الحيوانات، ومجموعة من الغرائز السامية التي تميزه عن غيره من الحيوانات كالغريزة الدينية والغريزة الأخلاقية وغريزة البحث عن الحقيقة «حب التطلع» والغريزة الجمالية.

وفي الإطار الفلسفي، تنظر هذه الطريقة إلى المجتمع «من حيث ارتباط أجزاءه وأفراده بأنه تركيب حقيقي، كما تنظر إلى المجتمع «من حيث خصاله» بأنه مجموعة من الخصال الدانية والسامية للأفراد إضافة إلى مجموعة خصال باقية مستمرة في المجتمع.

هذه الخصال الباقية المستمرة تتحكم في المجتمعات دون أن تتأثر بفناء الأفراد.

على أن تكامل الإنسان والمجتمع الإنساني يمنح هذه الخصال الباقية نظاماً أفضل.

مسيرة التاريخ ـ انطلاقاً من هذه النظرة ـ متحولة متكاملة كالطبيعة ذاتها، والحركة باتجاه الكمال ضرورة لا تنفصل عن ذات أجزاء الطبيعة بما فيها التاريخ.

تحول التاريخ وتكامله لا يقتصر على الجانب الفني والآلي. . أي لا يقتصر على الجانب المدني، بل أنه يعم ويشمل جميع الشؤون المعنوية والثقافية للإنسان، ويتجه نحو تحرير الإنسان من القيود البيئية والإجتماعية.

والإنسان بفعل تكامله الشامل يتحرر تدريجياً من إرتباطه ببيئته الطبيعية والإجتماعية ويتجه نحو توثيق إرتباطه بالعقيدة والإيمان والأيديولوجية، وسيصل في المستقبل إلى الحرية المعنوية التامة المتمثلة في الإرتباط التام بالعقيدة والإيمان والمدرسة الفكرية.

الإنسان في الماضي كان أسيراً وعبداً لقوى الطبيعة على الرغم من قلة تمتعه بمواهبها، والإنسان في المستقبل سيتحرر من قيود الطبيعة وستزداد سيطرته عليها في نفس الوقت الذي سيزداد إستثماره للطبيعة إلى أقصى حد ممكن.

لا ينبغي تفسير التكامل بآلات الإنتاج، ولا ينبغي اتخاذ المعلول مكان العلة. تكامل وسائل الإنتاج هو بدوره معلول إندفاع الإنسان الفطري

نحو الكمال والتنويع والإستزادة، وناتج عن قوة الإبتكار لدى الأفراد.

هذه القوة وذاك الإندفاع يتسعان جنباً إلى جنب في جميع جوانب الحياة الإنسانية.

وهذه الطريقة ترى أن من خصائص الإنسان إنطواءه على صراع داخلي بين الجانب الأرضي والترابي والجانب السماوي المتعالي. . أي بين الغرائز الهابطة ذات الهدف الفردي المحدود الموقت، والغرائز السامية التي تتجاوز حدود الفردية وتتسع لجميع البشرية وتستهدف تحقيق القيم الخلقية والدينية والعلمية والعقلية. . هذا الصراع أطلق عليه القدماء إسم النزاع بين العقل والنفس.

هذا الصراع الداخلي في نفس الإنسان سينجر إلى صراع بين المجموعات البشرية. ويتخذ صورة حرب بين الإنسان المتكامل المتحرر روحياً، والإنسان المنحط المغلول بقيود حيوانية.

هذا الإتجاه الفكري يقبل مبدأ الصراع

الإجتماعي ويؤمن بدور هذا الصراع في تغيير التاريخ وتكامله. لكنه يرفض أن يكون هذا الصراع طبقياً دائراً بين الفئة المرتبطة بوسائل الإنتاج والنظم والإجتماعية القديمة، وبين الفئة المرتبطة بوسائل الإنتاج الجديدة.

فالصراع الذي يؤمن به هذا الإتجاه الفكري ويؤمن بدوره في تطوير التاريخ هو الصراع بين الأفراد الملتزمين المؤمنين الهادفين المتحررين من قيود الطبيعة والغرائز الحيوانية، والأفراد المنحطين المتسافلين الراسفين في أغلال الشهوات الهابطة.

وقائع التاريخ تشهد أن كثيراً من الثورات التي قامت من أجل تأمين الإحتياجات المادية للمجتمع تصدر قيادتها أو ساندها على الأقل رجال متحررون من قيود الشهوات الهابطة.

وبين الطريقتين «الآلية والإنسانية» إختلاف في تفسير طبيعة الثورات والنهضات.

الطريقة الآلية: ترى أن تكامل وسائل الإنتاج يخلق طبقة محرومة تنهض بالثورات من أجل تأمين

إحتياجاتها المادية، فتعمد هذه الطبقة إلى تغيير الأنظمة والقوانين الموجودة وتستبدلها بأنظمة وقوانين جديدة. . وتدعي أيضاً: أن المحتوى الداخلي لأي إنسان يعكس مكانته الطبقية، والطبقة الحاكمة تسعى دوماً إلى حفظ النظام القائم وصيانته.

أما الطريق الإنسانية: فتقدم أمثلة تاريخية للثورات التي لم تقتصر على الطبقة المحرومة، بل نهض فيها أفراد نشأوا في الطبقات المرفهة، ووقفوا بوجه النظام الحاكم بقوة وبسالة كنهضات إبراهيم وموسى ومحمد والحسين بن علي. ولم تكن أهداف الثوار مادية دوماً، وخير دليل على ذلك ما شهده التاريخ الإسلامي من نهضات في سبيل الله، وخاصة في عصر صدر الإسلام، فيصف علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ الرعيل الأول من المسلمين المجاهدين فيقول: حملوا بصائرهم على أسيافهم «نهج البلاغة» الخطبة ١٤٨».

والثورات والنهضات لم تكن دوماً مرافقة لتطور وسائل الإنتاج، كالنهضات التي شهدها

الشرق والغرب خلال القرون الأخيرة من أجل مقارعة الإستبداد والطغيان. . فأي تطوير لوسائل الإنتاج حدث في إيران ـ مثلاً ـ أبان النهضة الدستورية؟!

ولم تكن الفوضى الإجتماعية دوماً وليدة نقص القوانين الموجودة. . بل كانت أحياناً وليدة عدم تنفيذ القوانين النظرية المقبولة، فانطلقت الحركات الإجتماعية من أجل تطبيق هذه القوانين. وتنفيذها عملياً، كحركات الشعوبية وثورات العلويين في التاريخ الإسلامي.

وأخيراً. . فالإنسان ليس بالموجود الذي لا يملك أية قدرة في التحكم بنفسية، وليس بالكائن المدفوع دوماً بدوافع غرائزه المادية ومصالحه الذاتية الآنية.

نتائج الإتجاه الإنساني أو الفطري لتفسير التاريخ:

١ ـ «المعارك الرابحة»:

معارك التاريخ إتخذت أشكالاً وماهيات

مختلفة وانطلقت من علل وأسباب متباينة. لكن المعارك التقدمية التي دفعت بعجلة التاريخ والإنسانية على سلم الإرتقاء هي المعارك التي دارت رحاها بين الإنسان العقائدي الملتزم المؤمن المتسامي والإنسان العابث المنحط المغلول بقيود شهواته الحيوانية والبعيد عن خط الإلتزام والهدف والتعقل.

المعارك التقدمية التكاملية ليست بذات صفة طبقية وليست بالمجابهة بين القديم والجديد بالمفهوم الذي ينض عليه الإتجاه الآلي.

المعارك البشرية تتجه على مر التاريخ بالتدريج نحو اتخاذ صفة أيديولوجية، ويتجه الإنسان بالتدريج نحو التكامل في قيمه الإنسانية، أي يقترب من الإنسان المثالي ومن المجتمع المثالي.

ستكون نهاية المسيرة الإنسانية إقامة حكومة العدل وحكومة سيادة القيم الإنسانية، أو بالتعبير الإسلامي «حكومة المهدي». كما ستزول حكومة قوى الباطل والطغيان والضلال المنساقة بدوافعها

الحيوانية والأنانية.

٢ ـ «حلقات التاريخ»:

التسلسل المنطقي لحلقات التاريخ ليس له أساس من الصحة كما يصوره أصحاب التفسير الآلي. وقائع التاريخ عامة وما شهده القرن الماضي خاصة تؤكد زيف هذه النظرية.

في القرن الماضي اتجهت بلدان إلى الإشتراكية دون أن تطوي المرحلة الرأسمالية نظير الإتحاد السوفيتي والصين وبلدان أوروبا الشرقية. ومن جهة أخرى ثمة بلدان بلغت فيها الرأسمالية ذروتها كالولايات المتحدة وبريطانيا، لكنها بقيت في هذه المرحلة دون تغيير أو انتقال، وثبت خطأ كل التوقعات التي أعرب عنها زعماء الإتجاه الآلي حين أكدوا على قرب إندلاع الثورة العمالية في البلدان الصناعية كبريطانيا وفرنسا.

أحداث التاريخ أوضحت زيف إدعاءات الجبر وأثبتت إمكان وصول طبقة البروليتاريا إلى درجة معينة من الرفاه بحيث لم تَعُد تخامرها فكرة

الثورة. كما أثبتت إمكان انتقال مجتمع من الحالة البدوية إلى أسمى مراحل الحضارة الإنسانية على أثر انبثاق أيديولوجية معينة وانتشار إيمان ديني بين أفراد المجتمع كما حدث في صدر الإسلام.

٣ ـ «قدسية النضال»:

مشروعية النضال وقداسته لا تنحصر في إطار الوقوف بوجه الإعتداء على الحقوق الفردية والوطنية، بل إن إطار هذه المشروعية والقداسة يتسع لكل نضال يستهدف الدفاع عن إحدى المقدسات البشرية المهددة بالخطر.

فالنضال مشروع متى ما تعرض حق لخطر، خاصة إذا كان ذلك الحق يتعلق بالمجتمع الإنساني، كالنضال من أجل التحرير، ومن أجل إنقاد المستضعفين ـ على حد التعبير القرآني ـ كما أن النضال على طريق التوحيد مشروع متى ما تعرض التوحيد للخطر ـ أياً كان هذا الخطر ـ إذ أنه أهم مقومات سعادة البشرية.

٤ ـ «الإصلاحات»:

الإصطلاحات الجانبية والتدريجية لا يمكن

إدانتها بأي شكل من الأشكال. فالتاريخ لا يطوي مسيرته عبر الأضداد ومن هنا فالإصلاحات الجانبية والتدريجية لا تمنع مسيرته التكاملية ولا تقف بوجه انفجار أحداثه.

الإصلاحات الجانبية التدريجية تساهم بدورها في دعم الحق خلال صراعه مع الباطل، كما تساعد في دفع مسيرة التاريخ لصالح دعاة الحق.

ومقابل ذلك، فأعمال الفسق والفجور تساعد قوى العدوان، وتعيق حركة التاريخ لما فيه ضرر أصحاب الحق.

تطور الأحداث ـ بناء على هذا التصور ـ هو كنضج الفاكهة على غصن الشجرة، لا كانفجار القدر الكاتم كما في التصور الآلي ـ.

فالشجرة تعطي فاكهة أفضل وأسلم، وربما أسرع، لو اهتممنا برعايتها وسقيها وكافحنا آفاتها.

٥ ـ «إثارة الفوضى»:

الدليل على شرعية الإصلاحات الجزئية التدريجية هو ذاته الدليل على عدم شرعية أعمال

التخريب وإثارة الفوضى والاضطرابات من أجل خلق الأزمات والضائقات، بخلاف النظرية الآلية التي تضفي صفة الشرعية على مثل هذه الأعمال.

٦ ـ «تأرجح منحنى التاريخ»:

المسيرة التاريخية في خطها الكلي العام تتجه نحو الكامل إلا أن هذا الخط المتصاعد لا يسير سيراً تكاملياً جبرياً في جميع نقاطه. فليس من الضروري حتماً أن يكون المجتمع في مرحلة معينة من تاريخه أكثر تكاملاً من مرحلته التاريخية السابقة، لأن العامل الأساسي في حركة التاريخ هو الإنسان، والإنسان موجود مختار وذو إرادة حرة.

منحني المسيرة البشرية يتأرجح بين الهبوط والإرتفاع، وبين السرعة والبطء والسكون أحياناً. وتاريخ الحضارات البشرية ليس سوى سلسلة من حالات الإزدهار والهبوط والسقوط والإنقراض. وكما يقول «تويمبي»: إنحطاط الحضارات أمر لا يمكن رفضه لكن تاريخ البشرية يطوي بمجموعة مسيرة تكاملية.

٧ ـ «التحرر من أغلال الطبيعة»:

المسيرة التكاملية للبشرية تتجه نحو التحرر من أغلال الطبيعة المادية والظروف الإقتصادية والمصالح الفردية والجماعية لتتخذ طابع الإلتزام والإيمان الفكري.

إرادة الإنسان الإبتدائي كانت محدودة غالباً بتأثيرات بيئته الطبيعية والإجتماعية وغرائزه الحيوانية، لكن إرادة الإنسان المتطور تحررت بالتدريج من أسر البيئة والغرائز الحيوانية، بل واضحت تتحكم في عوامل البيئة والغرائز تبعاً لتكامل ثقافة الإنسان واتساع آفاقه وازدياد إلتزامه بالأيديولوجيات التقدمية.

٨ ـ «ماهية الجهاد»:

حركة الجهاد والأمر بالمعروف لها ماهية إنسانية لا طبقية.

٩ ـ «أصالة القوى الفكرية والأخلاقية»:

قوة الإقناع الفكري، أي قوة الإستدلال والبرهان، لها أصالتها في الموجود الإنساني،

وبعبارة أخرى: الضمير البشري ـ سواء من الناحية الفكرية، أو من حيث النزوع نحو السمو الإنساني ـ قوة أصيلة تتحكم أحياناً في المتطلبات المادية.

١٠ ـ «المثلث الهيغلي»:

مثلث الديالكتيك «الأطروحة والطباق والتركيب» بشكله الهيغلي الماركسي لا ينطبق على التاريخ ولا على الطبيعة.

حلقات التاريخ ليست سلسلة من الأضداد المشتقة بعضها من بعض. كما أن الطبيعة لا تسير عبر هذا المثلث..

هذا المثلث يقوم على أساس تبدلين وتركيب واحد، أي تبدل الشيء إلى ضده، وهذا الضد إلى ضده، ثم يحدث التركيب في المرحلة الثالثة.

وما يحدث في الطبيعة إما أن يكون تركيباً للأضداد دونما تبدل، أو تبدلاً للأضداد دونما تركيب، أو أن يكون تكاملاً خالياً من تركيب الأضداد وتبدلها.

فتفاعل الأوكسجين والهيدروجين تركيب

ليس فيه تبدل «أي لم يتبدل أحد العنصرين إلى العنصر الآخر». . .

ويحدث أحياناً أن تتدخل الطبيعة في إيجاد حالة تعادل بين ظاهرتين متناقضتين. وفي مثل هذه الحالة يحدث تبدل ليس معه تركيب وتكامل.

وجدير بنا أن نقول للمغرمين بألفاظ المثلث الهيغلي وبلفظة الديالكتيك: إننا نستطيع أن نطلق على أحد الموجودين المتفاعلين إسم «الأطروحة» وعلى الآخر إسم «الطباق»، وكذلك على حالة التعادل بين الظاهرتين المتناقضتين إسم «التركيب».

كما نستطيع أيضاً أن نطلق على كل فكر يقوم على أساس الحركة والتناقض إسم «الفكر الديالكتيكي»، ولو أن هذا الفكر يفتقد العنصر الأساسي الذي امتازت به الماركسية.

لكنه ينبغي الإلتفات إلى أن إطلاق هذه الألفاظ هو اصطلاحي محض قد تدفعنا إليه رغبة شخصية لا أكثر.

نظريتان لتفسير الإنسان:

الطريقتان السابقتان لتفسير الحركة التكاملية للتاريخ ناتجتان عن نظريتين مختلفتين لتفسير الإنساني وهويته الواقعية وملكاته الكامنة.

إحدى النظريتين ترى الإنسان موجوداً مغلولاً لمصالحه المادية ومصالحه الإقتصادية ومسيراً في إتجاه جبري يفرضه عليه تطور وسائل الإنتاج.

وكل ما ينطوي عليه الإنسان من مشاعر ورغبات وأحكام وأفكار وقدرة على الإنتخاب إنما هو انعكاس لظروف بيئته الطبيعية والإجتماعية.

الإنسان بموجب هذه النظرة مرآة لا تستطيع أن تعكس سوى ما يحيطها، وليس بمقدره أن يقوم بأدنى حركة خلافاً لما تسمح به ظروف البيئة الطبيعية والإجتماعية.

والنظرة الأخرى ترى الإنسان موجوداً متمتعاً بخصال إلهية ومزوداً بفطرة تدفعه لأن يطلب الحق وينشده، وقادراً على التحكم بنفسه وعلى التحرر من جبر الطبيعة والبيئة والغرائز والمصير المحتوم.

والقيم الإنسانية بموجب هذه النظرة لها أصالتها في الإنسان، أي أن ثمة نزعات قد أودعت في طبيعة الإنسان، والموجود البشري بموجب طبيعته الإنسانية ينشد القيم الإنسانية السامية، وبعبارة أخرى ينشد الحق والحقيقة والعدالة ومكارم الأخلاق، ويستطيع بموجب قواه العقلية أن يخطط لبناء مجتمعه وأن لا يستسلم إستسلاماً أعمى لظروف البيئة، وأن ينفذ مشاريعه الفكرية إنطلاقاً من إرادته وقدرته على الإنتخاب.

دور الوحي هو الموجه والمساعد للإنسان، باعتبار أن الوحي هادي البشرية وحامي القيم الإنسانية.

الإنسان يتأثر دون شك بظروف بيئته، لكن هذا التفاعل لا يسير باتجاه واحد بل أن الإنسان يؤثر أيضاً على بيئته.

والمسألة الأساسية في هذا التفاعل هي أن تأثير الإنسان على البيئة لا يظهر على شكل ردود فعل جبرية قهرية. فالإنسان، باعتباره موجوداً واعياً حراً مريداً قادراً على الإنتخاب ومجهزاً بخصائص

فطرية سامية، يبدي أحياناً ردود فعل تختلف عما يبديه حيوان مسير فاقد للوعي من ردود فعل.

الخصلة الرئيسية التي تميز الإنسان عن سائر الموجودات هي قوة سيطرة الإنسان على نفسه والثورة على انحرافاته وكل النقاط المضيئة في تاريخ البشرية نابعة من هذه الخصلة.

وهذا الجانب المتسامي من الإنسان منسي تماماً في الإتجاه الآلي لتفسير التاريخ.

التفسير القرآني:

التفسير القرآني للتاريخ ينطلق دون شك من النظرة الثانية.

القرآن يسرد وقائع التاريخ البشري منذ بداية الخليقة على أنها صراع مستمر بين قوى الحق وقوى الباطل، بين مجموعة من أمثال إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأتباعهم المؤمنين، ومجموعة أخرى من أمثال نمرود وفرعون وجبابرة اليهود وأبي سفيان وأمثالهم.

فلكل فرعون موسى...

وفي خضم هذا الصراع المستمر ينتصر الحق حيناً والباطل حيناً آخر.

وانتصار أحد الفريقين أو فشله يرتبط طبعاً بمجموعة من العوامل الإجتماعية والإقتصادية والأخلاقية.

تأكيد القرآن على تأثير العوامل الأخلاقية في مسيرة التاريخ صير من التاريخ مصدر تعليم مثمر معطاء لو نظرنا إلى التاريخ على أنه مجموعة صدف واتفاقات ليس لها علة ولا موازين أو ضوابط، لتبدلت أحداث التاريخ إلى أساطير لا تصلح إلا للتسلية والسمر وتربية الخيال، دون أن يكون فيها أي عطاء تعليمي.

ولو آمنا بوجود قواعد وموازين للتاريخ دون أن يكون للإنسان دور فيه، لأضحى العطاء التعليمي للتاريخ نظرياً فقط لا عملياً.

وسوف نتعلم ـ في هذه الحالة ـ من التاريخ نظير ما نتعلمه من حركات الكواكب والمجرات.

وكما أن معلوماتنا عن الكواكب والنجوم لا

تساعدنا في تغيير مسيرها، كذلك معلوماتنا عن التاريخ لا تمنحنا أي دور في تعيين مسير حركة التاريخ.

أما حينما نؤمن بضوابط التاريخ وموازينه وقواعده، وبدوره إرادة الإنسان في تعيين مسير حركة التاريخ وبالدور الأصيل والحاسم للقيم الأخلاقية والإنسانية، يصبح التاريخ حينئذ ذا عطاء تعليمي مفيد، والقرآن ينظر إلى التاريخ من هذه النافذة.

القرآن الكريم يتحدث مراراً عن الدور الرجعي الذي يلعبه «الملأ» و«المترفون» و«المستكبرون» على مسرح التاريخ، كما يتحدث عن دور «المستضعفين»....

ويؤكد القرآن في الوقت ذاته على أن الصراع المستمر بين الفريقين منذ فجر التاريخ ذو هوية معنوية إنسانية لا مادية طبقية.

المجتمع المثالي:

مسألة نهضة «المهدي» ـ عليه السلام ـ قضية

إجتماعية فلسفية كبرى.

هذه المسألة لها أركانها وعناصرها المختلفة، بعض هذه الأركان والعناصر فلسفي عالمي يشكل جزءاً من التصور الإسلامي، وبعضها ثقافي تربوي، وبعضها سياسي، وبعضها إقتصادي، وبعضها إجتماعي وبعضها إنساني، أو إنساني ـ طبيعي[١].

لا يسعنا هنا أن ندرس هذه المسألة على ضوء القرآن والسنة، لذلك نكتفي بذكر خلاصة لخصائص هذه البشرى الكبرى لكشف عن ماهية «الإنتظار الكبير».

أ ـ التفاؤل بمستقبل البشرية: فحول مستقبل المسيرة البشرية اختلفت الآراء والنظرات.

إعتقد بعض المفكرين أن الشر والفساد والتعاسة صفات لا تفارق الحياة البشرية، وذهبوا إلى أن الحياة لا قيمة لها على الإطلاق، وأفضل ما

---

(١) ألقيت ثماني محاضرات في هذا الموضوع عام ١٩٧٤، أرجو أن أوفق لنشرها بعد إعادة النظر فيها.

يستطيع أن يقوم به الإنسان هو أن يضع نهاية لهذه الحياة.

وبعض آخر ذهب إلى أن الحياة البشرية بتراء، وقال: إن البشرية تحفر قبرها بيدها بفعل تطورها التكنولوجي وتقدمها في صنع وسائل التخريب والدمار، وهي على شفا السقوط والإنهيار.

يقول «رسل» في (الآمال الجديدة): «... ثمة أفراد ـ منهم أنشتاين ـ يزعمون أنه من المحتمل جداً أن يكون الإنسان قد طوى دورة حياته، وسيستطيع خلال السنوات القليلة القادمة أن يبيد نفسه بما يتمتع به من مهارة علمية فائقة».

واستناداً إلى هذه النظرية، تواجه البشرية الفناء الآن وهي في ربيع عمرها، وعلى أبواب نضجها الثقافي.

وإذا اكتفينا بالشواهد الظاهرية، فإننا لا نستطيع طبعاً أن ننفي هذا الإحتمال.

أما النظرية الثالثة فترفض المقولتين

السابقتين، فلا الشر والفساد والتعاسة صفات تلازم البشرية، ولا التطور المدني المادي بقادر على إبادة البشرية، بل أن البشرية تتجه نحو مستقبل مشرق سعيد تنقلع فيه جذور الظلم والفساد.

هذه النظرية يبشر بها الدين، ونهضة المهدي ترتبط بهذه البشرى.

ب ـ انتصار الحق والتقوى والسلام والعدل والحرية على الظلم والدجل والإستكبار والإستعباد.

جـ ـ قيام حكومة عالمية واحدة.

د ـ عمران الأرض بحيث لا تبقى بقعة خربة غير عامرة.

هـ ـ بلوغ البشرية إلى حد النضج والتكامل يلتزم فيه الإنسان طريق العقل والعقيدة، ويتحرر من أغلال الظروف الطبيعية والإجتماعية والغرائز الحيوانية.

و ـ استثمار ذخائر الأرض إلى أقصى حد ممكن.

ز ـ إحلال المساواة التامة بين البشر في حقل الثروة.

حـ ـ اقتلاع جذور الفساد كالزنا والربا والخيانة والسرقة والقتل وشرب الخمر، وخلو النفوس من العقد والأحقاد.

ط ـ زوال شبح الحروب وسيادة السلام والحب والتعاون والصفاء.

ي ـ المواءمة بين الإنسان والطبيعة.

هذه الأهداف تلقي الضوء على ماهية مسألة المهدي، وكل واحدة منها تحتاج إلى استدلال وتحليل ودراسة لا يسعها بحثنا هذا، فنتركها إلى فرصة أخرى.

الإنتظار الكبير:

المستقبل الذي ينبغي أن تُعقَد عليه الآمال، والذي شاءت الإرادة الإلهية أن يسير نظام العالم تجاهه، هو هذا الذي ذكرناه.

والآن ينبغي أن نعود إلى موضوع انتظار الفرج الذي قسمناه في بداية هذا الحديث إلى قسمين:

إنتظار بناء حركي ملتزم عبادي، بل من أفضل العبادات، وانتظار مخرب معوق يبعث على الخمود والخمول والكسل والتقاعس، ويعتبر نوعاً من «الإباحية».

ذكرنا أن هذين اللونين من الإنتظار ينطلقان من نوعين من التصور حول الحدث التاريخي العظيم المتمثل بظهور المهدي الموعود.

وهذان التصوران ينتجان بدورهما من نوعين من التصور بشأن تطور التاريخ.

نشرح فيما يلي هذين النوعين من الإنتظار ونبدأ بالانتظار المخرب:

الإنتظار والمخرب:

بغض المؤمنين بظهور المهدي يتصورون أن نهضة هذا المنجي ذات طابع إنفجاري محض، وناتجة فقط عن انتشار الظلم والجور والفساد والطغيان، أي أن مسألة الظهور نوع من الإصلاح الناتج عن تصاعد الفساد.

هؤلاء يتصورون أن مسيرة البشرية تتجه إلى إنعدام العدل والقسط، وإلى زوال أنصار الحق والحقيقة، وإلى استفحال الباطل.

وحينما يصل هذا الإنحدار إلى نقطة صفر يحدث الانفجار المرتقب، وتمتد يد الغيب لإنقاذ الحقيقة ـ لا أنصار الحقيقية ـ إذ لن يبق للحقيقة أنصار آنذاك.

هذا التصور يُدين كل إصلاح، لأن الإصلاح يشكل نقطة مضيئة على ساحة المجتمع العالمي، ويؤخر الإمداد الغيبي كما يعتبر هذا التصور كل ذنب وتمييز وإجحاف مباحاً لأن مثل هذه الظواهر تمهد للإصلاح العام وتقرب موعد الإنفجار.

هذا التصور يميل إلى مذهب الذرائع الذي يذهب إلى أن الغاية تبرر الوسيلة.

فإشاعة الفساد ـ بناءاً على هذا التصور ـ أفضل عامل على تسريع ظهور المهدي وأحسن شكل لانتظار فرج ظهوره.

أصحاب هذا التصور ينظرون إلى الذنوب

نظرة تفاؤل واستبشار ويعتبرونها عاملاً مساعداً على إنطلاق الثورة المقدسة الشاملة.

هؤلاء ينظرون إلى المصلحين والمجاهدين والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر بعين الحقد والعداء.. لأنهم يعملون على تأخير ظهور المهدي.

أصحاب هذا التصور ـ إن لم يكونوا هم من زمرة العاصين ـ ينظرون إلى أصحاب المعاصي بعين الإرتياح والرضى لأنهم يمهدون لظهور القائم المنتظر.

تصور شبه ديالكتيكي:

الإتجاه المخرب في فهم قضية ظهور المهدي يشترك مع الإتجاه الديالكتيكي في معارضته للإصلاحات وفي تأييده لأنواع الظلم والفساد باعتبارها مقدمة لإنفجار مقدس، مع فارق بين الإتجاهين هو أن الإتجاه الديالكتيكي يعارض الإصلاحات ويؤكد على ضرورة تشديد الفوضى والإضطرابات انطلاقاً من هدف مشخص يتمثل في

تعميق الفجوات والتناقضات لتصعيد النضال.

لكن هذا التفكير المبتذل في مسألة ظهور المهدي يفتقد هذه النظرة، ويرتأي زيادة الظلم والفساد من أجل الوصول إلى النتيجة المطلوبة تلقائياً.

هذا اللون من الفهم لمسألة ظهور المهدي، وهذا النوع من الإنتظار للفرج لا يرتبط على الإطلاق بالموازين الإسلامية والقرآنية إذ أنه يؤدي إلى التعمد في تعطيل الحدود والأحكام الإسلامية بل نوع من الإباحية.

الإنتظار البنّاء:

الآيات الكريمة التي تشكل أرضية التفكير حول ظهور المهدي المنتظر تتجه إلى جهة معاكسة للنظرة السابقة.

هذه الآيات تشير إلى أن ظهور المهدي حلقة من حلقات النضال بين أهل الحق وأهل الباطل، وأن هذا النضال سيسفر عن انتصار قوى الحق.

وتتوقف مساهمة الفرد في تحقيق هذا الإنتصار على انتمائه العملي إلى فريق أهل الحق.

هذه الآيات التي تستند إليها الروايات في مسألة ظهور المهدي تشير إلى أن المهدي تجسيد لآمال المؤمنين العاملين، ومظهر لحتمية انتصار فريق المؤمنين:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾.

ظهور المهدي الموعود تـ تميق لمنة الله على المستضعفين ووسيلة لاستخلافهم في الأرض ووراثتهم لها.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾.

ظهور المهدي الموعود تحقيق لما وعد الله به المؤمنين والصالحين والمتقين في الكتب السماوية المقدسة:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

ثمة حديث معروف في هذا المجال يذكر أن المهدي «**يملأ الله به الأرضَ قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً**».

هذا الحديث شاهد على ما ذهبنا إليه في مسألة الظهور لا على ادعاء أرباب الإنتظار المخرب.

هذا الحديث يركز على مسألة الظلم ويشير إلى وجود فئة ظالمة وفئة مظلومة وإلى أن المهدي يظهر لنصرة الفئة المظلومة التي تستحق الحماية.

ولو كان الحديث يقول أن المهدي «يملأ الله به الأرضَ إيماناً وتوحيداً وصلاحاً بعدما ملئت كفراً وشركاً وفساداً» لكان معنى ذلك أن نهضة المهدي الموعود تستهدف إنقاذ الحق المسحوق لا إنقاذ أنصار الحق، وإن كان هؤلاء الأنصار أقلية.

يروي الشيخ الصدوق عن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ «**إن ظهور المهدي لا يتحقق حتى**

يشقى من شقى ويسعد من سعد».

الحديث عن الظهور يدور حول بلوغ كل شقي وكل سعيد مداه في العمل، ولا يدور حول بلوغ الأشقياء فقط منتهى درجتهم في الشقاوة.

وتتحدث الروايات الإسلامية عن نخبة من المؤمنين يلتحقون بالإمام فور ظهوره.

ومن الطبيعي أن هذه النخبة لا تظهر معلقة في الهواء بل لا بد من وجود أرضية صالحة تربي هذه النخبة على الرغم من انتشار الظلم والفساد. وهذا يعني أن الظهور لا يقترن بزوال الحق والحقيقة، بل أن أهل الحق ـ حتى ولو قلوا فَرَضا ـ يتمتعون بكيفية عالية تجعلهم في مصافي المؤمنين الأخيار، وفي مرتبة أنصار الحسين بن عليه ـ عليه السلام ـ.

الروايات الإسلامية تتحدث أيضاً عن سلسلة من النهضات يقوم بها أنصار الحق قبل ظهور المهدي، منها نهضة اليماني. مثل هذه النهضات لا يمكن أن تبتدىء بساكن، ولا تظهر دون أرضية مسبقة.

بعض الروايات تتحدث عن قيام دولة أهل الحق التي تستمر حتى ظهور المهدي.. حتى إن بعض العلماء أحسنوا الظن بدولة بعض السلالات الحاكمة، فظنوها أنها الدولة التي ستحكم حتى ظهور المهدي.

هذا الظن ـ وإن كان ينطلق من سذاجة في فهم الوقائع السياسية والإجتماعية ـ يدل على استنباط هؤلاء العلماء من الروايات والأخبار المتعلقة بظهور المهدي ما يشير إلى أن الظهور لا يقترن بفناء الجناح المناصر للحق والعدل والإيمان، بل يقترن بانتصار جناح العدل والتقوى والصلاح على جناح الظلم والتحلل والفساد.

الآيات والروايات المرتبطة بظهور المهدي المنتظر تدل على أن ظهوره يشكل آخر حلقة من حلقات الصراع الطويل بين أنصار الحق وأنصار الباطل منذ بدء الخليفة.

«المهدي المنتظر تجسيد لأهداف الأنبياء والصالحين والمجاهدين على طريق الحق».

